فى الادب المغربي (١)

للأستاذ عبد الله محمد المرانى

خريج دار العلوم

تحت هذا العنوان أريد التحدث قليلا فيما يختص بأدب المغرب الأقصى وحياته منذ الفتح الأندلسى (سنة ١٧٢ ﻫ) إلى آخر القرن الثالث عشر الهجرى .

وهو موضوع طويل وعريض . وأخشى أن يكون طوله وعرضه عاملا من العوامل التى ساعدت على التقصير الذى أعترف به من الآن . إن الوقت لا يسمح لى الآن بالدراسة التفصيلية لهذا الأدب ، كما أن مصادر البحث التى يمكن الرجوع اليها قليلة جداً . ولهذا سأقتصر على أن يكون هذا البحث مركزاً للغاية . وسأجتهد فى إعطاء فكرة تنير السبيل أمام من يريد التوسع فى هذا الأدب . وقد تتاح لى الفرصة لدراسة ألوان الشعر والنثر حين يكون فى الوقت متسع ، ويكون مجال البحث أيضا واسعاً .

الغرض من هذا البحث

قد يتفق لبعض الناس هنا فى مصر (كعبة العلم فى العصر الحاضر وملتقى الشرق والغرب) أن يسألنى عن موقع البلاد المراكشية وهل المراد بها المغرب الأقصى ؟ كما يتفق للبعض الآخر أن يستفسر عن موقع مدينة ما من هذه البلاد ، فآسف أشد

---

(١) محاضرة القيت فى قاعة على باشا مبارك بدار العلوم

الأسف لأن هذا البعض أو ذاك يجهل مثل هذه الحقائق ، ثم أدله على موقع هذه أو تلك لأكون قد أديت بعض الواجب على فى ايفائه على مايريد .

قد طرق سمعى مثل هذا السؤال غير مرة فكنت أقول فى نفسى : إذا كانت هذه هى الحال فى معرفة البلاد فكيف الحال فى معرفة أهلها وانتاجها الادبى وغير الأدبى ؟ أفلا يحق لى ولمثلى أن يتعرف إلى الناس مادام أنه قدعرفهم ؟ وأن يعرفهم ببلاده وأدبها مادام هو ببلادهم ؟ فليكن ذلك ! وليتقدم كل واحد على التعريف بوطنه وأدبه . فان زمن الوحى أو المعجزات قد انقضى . إن الادب لايعرف الحدود الجغرافية ولن يعرفها ، بل هو حق مشاع بين أفراد الجنس البشرى عامة ، وبين أفراد الامة الواحدة خاصة . إذن فما هذه الحدود والقيود التى تجعل أدب قطر عربى يحجم عن اقتحام قطر عربى آخر مثله ؟

أجل ، هى حدود الصدود والبعاد التى تجعلنا نتساءل : ألا من وصال ؟

وإذا كانت الحروب الحديثة يرجع اليها الفضل التام فى التعريف بالمناطق أو المدن التى تدور حولها رحى الحرب فانى لاأرى مانعاً من إن أعلن الحرب على الادب المغربى ؟ لعل ذلك يثير من حب استطلاع القراء وأدباء الشرق مايشفى غليلى وغليل كل من يشعر بأن أدب قومه أو بلده يجب أن يسرى على الالسن سريان تيار النور فى أسلاك الكهرباء .

يجب أن نقضى على ماهو كائن أو كان ، وأن نلتفت إلى ماينبغى أن يكون ، يجب أن يكون الأدب أداة اتصال وهمزة وصل بين أمم الارض جميعاً ، وبالاحرى بين أقطار الأمة الواحدة . وما ذلك إلا لان الادب هو السفير الحق بين هذه الامم بعضها مع بعض ، وبين أجزاء الامة الواحدة من باب أولى ان كان هناك أجزاء .

ان رسالة الادب لن تنقضى ، وان جميله لن ينكر مهما كان نوع هذا الادب ولونه . ويذكرنى هذا بمعركة أدبائنا التى وقعت بعد انهيار فرنسا فى هذه الحرب الضروس والتى كان أحد جانبيها فى مصلحة الامة المهزومة يبكيها ويرثى لحالها ، وذلك على الرغم من أنها طالما سامت أبناء أمته سوء العذاب .

إن العصر الحديث يمتاز بالسرعة فى كل شىء ، حتى إن العالم صار ازاء المواصلات

كانه كرة صغيرة أمام الشخص يضع أصبعه على المواطن المختلفة التي يريدها فيصلها بأقصى سرعة . أمع هذا نجد صعوبة في وصل المغرب بالمشرق ؟ أم نجد صعوبة في توحيد المناهج الثقافية والادبية بين مختلف الاقطار العربية . ولعل المؤتمر المقبل للتعليم الاسلامي سيقضي على كل الحدود والقيود فيما بين الآداب العربية المختلفة ، ولعله كذلك سيحل من مشكلات التوحيد الثقافي مايحقق شيئا من الآمال في هذا السبيل .

الأدب وأهميته

ان الادب — وهو فن من الفنون الجميلة — لابد أن يتغير تغير البيئة ، وأن يتأثر بكل مالها من مؤثرات فيه ؟ ومن هنا كان لكل أمة أدبها الخاص .

ومن هنا أيضا كان الكاتب أو الشاعر صورة من بيئته الاجتماعية المحيطة به . وما الأدب إلا لحن جميل ترددة ألسن الامة شرقا وغربا بعد أن تفتن فيه قرائح الأدباء بقدر ماتسمح لها به بيئتها وظروفها الاجتماعية ، وبقدر ماتدركه وتحسه من ألوان الجمال الفني ، ثم بقدر مايعبر عن عواطفها ومشاعرها المستقلة — نوعاً ما — عن عواطف و مشاعر أقرانها في أي نحو من أنحاء العالم .

فأهمية الادب تبدو في تعبيره الصادق عن حياة الامة وروحها . والحياة بأنواعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية لابد أن تتراءى على مرآة صافية صقيلة هي الحياة الادبية . وإذا ماأردنا أن ندرس حياة أمة من الامم فلا بد من الرجوع الى انتاجها الفني ، والادب في الطليعة من هذا النتاج . ان ارتباط التاريخ بالادب شديد ، ومن ينكر أن التاريخ العربي مثلا — مدين بالشيء الكثير للادب في كشفه عن الحياة الجاهلية وجلاء غامضها ؟

ويقال هذا في حياة الامة ذات الادب اللفظي من ألوان الشعر والنثر ، أما الامة ذات الادب الرمزي كانواع التصوير والنحت فلا تخلو من أن يكون أدبها مصحوبا بنقوش تعبر عنه وتحدد لنا الاشياء الادبية المطلوبة . على أن الامة قد تجمع بين الادبين فيسير اللفظي والرمزي جنباً الى جنب كلاهما يكمل صاحبه فيعبر عما نحن

فى حاجة الى دراسته وكشف غموضه . ولايخفى أن للادب فى كل حال من هذه الاحوال الثلاث مقامه الذى يختلف قوة وضعفاً باعتبارين مختلفين .

سقنا كل هذا لنخلص الى نتيجة واحدة هى أن الادب بنوعيه مصدر مهم فى حياة الامة وتاريخها ، بل فى أية ناحية من نواحى هذه الحياة .

الصلة بين الآداب عامة

كلنا يعرف أن لكل أمة أدبها الخاص وهذا مما لاجدال فيه . وكلنا يعرف أن للامة العربية ممالك وأقطاراً ، فلا عجب إذن أن يكون للادب العربى ممالك وأقطار أيضا ، والا فما كان للاندلس أدب ولا للمغرب والشام وبلادالعرب مثلا — آداب أخرى ، وإلا فما فكر كذلك أدباء مصر الآن فى أن يكونوا لها أدبا أوهو كائن بالفعل ولكنهم فى حاجة الى أن يجمعوا شمله ويلموا شعثه حتى يصير كائنا حيا معترفا به من لدن البيئات الادبية الاخرى .

انه لمن السخف جداً أن يقال : ان الادب الجاهلى نسخة من الادب اليونانى القديم أو ان الادب فى قرطبة صورة مكررة لأدب بغداد .

وقد يقال : ان العواطف الانسانية وحدة لاتتفك أجزاؤها ، وسلسلة متصلة الحلقات لايدرى أين طرفاها ، فلم لايكون الادب باعتباره معبراً عن تلك العواطف وحدة كذلك ؟ والجواب على هذا هو أن طريقة الاداء والتعبير عما فى النفس تختلف باختلاف الزمان والمكان والانسان ، وان كانت العواطف والمشاعر لاتختلف ذلك الاختلاف .

ان الطبيعة وهى الام الرءوم ، مستعدة لامداد كل انسان بما يخصه ، ولكن الانسان هو الذى يختلف فى كمية مايأخذه وكيفيته ، وهذا هو مصدر التعدد والاختلاف بين انتاج الاشخاص بعضهم مع بعض أولا ثم انتاج الشخص الواحد ثانياً .

وما الشأن فى اختلاف الاداء وطرق التعبير عن العواطف الانسانية إلا كشأن الصور الزيتية المتعددة لمنظر ما ، فالمصدر واحد ولكن الاختلاف جاء من

نظرة كل فنـــان الى المنظر الذى أمامه ، فكانت النتيجة أن تختلف الاوضاع والالوان الزاهية لتبدو الصورة ملائمة للطبيعة حينا ، وفائقة اياها فى حسنها وجمالها حيناً آخر .

ومع هذا الاختلاف فان الآداب عامة لاتعدم صلة قربى وتشابه بين بعضها والبعض الآخر . وهو تشابه محدود على كل حال ، وان كان يطيب لبعض الناس أحياناً أن يسموه بالاخذ أو السرقة الادبية . والقول الفصل فى هذا هو أن المعانى مشتركة والعواطف واحدة وأنها ملك مشاع بين جميع أفراد الجنس البشرى ، فلكل واحد الحق فى أن يتصرف كما يشاء وأن يعبر عما يحسه ويدركه كيفما يريد . والاتفاق فى طريقة الاداء وأسلوبه قد يكون ناشئا من أن الاديب اللاحق متأثر بالسابق أى أنه قرأ وحفظ له كثيراً ثم نسى ماحفظ أو قرأ . ولكن الخلاصة المهضومة ، الممثلة ، لاتزال عالقـــة بذهنه يستطيع التعبير عنها متى أراد .

فعملية الهضم و التمثيل ، تحيل المعـــانى أو الافكار المنسية جزءا من لحم الكاتب أو الشاعر ودمه ، وأظن أنه من الاجحاف وعدم الانصاف بعد عملية التمثيل هذه أن يقال : إن هذا المعنى لفلان ..... وان كان له فضل السبق والتقدم فيـــه .

على أن وجوه الشبه هذه أو مايسمونه بالاخذ أو السرقة قد تكون بين أديبين من أمتين مختلفتين لكل منهما لسان خاص، وقد يكون أحدهما أو كلاهما غير عارف بلغة الآخر . يعلل هذا بأن الانسانية جمعاء مشتركة فى معانى وأحاسيس يحسها كل من له عقل أو قلب ، ولا فرق فى هذا بين زمان أو مكان أو لسان . فآداب اللغات المختلفة تتشابه كتشابه الآداب فى اللغة الواحدة ، مثل الاداب فى هذا كمثل الناس فى صورهم وأجسامهم كلاهما يعيش على نوع من الوراثة تشابه فيه الفروع الاصول فى قليل أو كثير ، وفى أزمان متلاحقة أو متباعدة . إن الانسانية ليست متشابهة فى الاشكال والالوان فحسب ، ولكن فى القرائح والعقول أيضاً .

شخصية الادب المغربى

لئن كان المغرب الاقصى شخصية ثابتة واستقلال ذاتى فى عاداته وتقاليده فلا يدهشنا أن يكون له أدب ذو شخصية ثابتة واستقلال ذاتى كذلك . ومادام الأدب صورة للمجتمع ولما فى الحياة التى يحياها أهل ذلك المجتمع ، وما دامت هذه الحياة تختلف باختلاف المؤثرات فيها من عوامل البيئة والوراثة ، فانه من المحتمل جداً بل من المتعين أن يكون لكل مجتمع أدبه الذى يكون مستقلا بقدر ماتسمح به طبيعة ذلك المجتمع التى تطبعه بطابع خاص ، وتصبغه بصبغة ملائمة لحياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ولا يغرب عن البال أن المغرب منذ وطئت ثراه قدما المولى ادريس بن عبدالله سنة ١٧٢ هـ ظل مستقلا عن المشرق سياسيا حقبا طويلة من الزمن فنشأت به وازدهرت دول عظيمة الشأن فى التاريخ السياسى للمغرب الاقصى فلا عجب إذن أن يستقل عنه أدبيا ، ولا عجب أيضا أن يكون لفنون القول سياسة كما كانت لامور الدولة سياسة وللسياسة كالا يخفى تأثيرها البالغ فى احياء الادب وتوجيهه وصبغه بالصبغة التى تلائمها فى كثير من الاحيان واذا عرفنا ذلك عرفنا (أن المبدأ الذى يقول : بأن الأدب للأدب ، قلما يتحقق لكل الناس وفى كل حين . وعلى كل حال فهو مبدأ ينبغى أن يعمل الناس على تحقيقه فى أى وقت كان)

لقد اختلفت الأذواق ولا زالت تختلف فى معرفة البلاغة التى هى مطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال ، ومادامت هذه الأحوال تختلف باختلاف الأقاليم والاقطار فلا شك أن بلاغة أهل المغرب — كما يقول ابن خلدون — غير بلاغة أهل المشرق وبلاغة الاندلس غير هاتين ، لأن عربية المغرب متأثرة بالبربرية (لغة السكان الاصليين) وعربية المشرق متأثرة أيضاً بالفارسية والتركية وعربية الاندلس متأثرة كذلك بلغة الفرنجة والجلالقة (الاسبان) . فمعرفة أية بلاغة من هذه لاتحصل إلا لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها ، إذ أن كل واحد مدرك لبلاغة لغته وذائق محاسن الشعر من أهل جلدته .

وهنا أرى نفسى مضطرا للرد على صاحبى كتاب : المطرب فى أدب الاندلس والمغرب ، فقد تجنيا على الادب المغربى وحكما عليه حكما لايوافق حقائق الامور .

إن هذا الحكم ناشىء من أنهما لم يحسنا الاطلاع على فوائد هذا الادب والغوص وراء لآلئه ودرره . وهذا يحصل كثيرا من أدبائنا الذين ألفوا الحكم على الاشياء قبل معرفتها وتجاهلوا أن الحكم على الشيء فرع دراسته الدراسة العميقة ، وأن البحث العلمى الدقيق يجب أن يتحرى الحقائق وأن يضع الامور فى نصابها لا أن ينظر بعين السخط فيجعل من القبة حبة ، أو بعين الرضا فيجعل من الحبة قبة كما يقولون .

كما أن حكمهما أيضا قد يكون ناشئا من قياسهما الخطىء قياس الشعر الجيد الرصين على ذلك الشعر العامى الذى قرأاه فى مقدمة ابن خلدون وغيرها ، الشعر الذى ينبغى أن نعده شاهدا لا على ضعف الملكة الشعرية هناك ، بل على أن هناك نوعا جديدا من الشعر العامى الاجتماعى نبت وترعرع فى أصيص واحد مع الشعر العربى الفصيح . على أن هذا الشعر العامى — كالفصيح — يختلف من مكان الى مكان ، فبلاغته لا يمكن أن تدرك إلا لمن خالط لغة المكان وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها كما تقدم . إذن لا يمكن أن نصغى أو نتقبل حكم صاحبينا فى هذه الناحية ، إلا اذا تقبلنا حكم أجنبى عن مصر (لا يحسن عاميتها) فى ديوان الاستاذ بيرم التونسى مثلا أو مجلة من مجلات الفكاهة المصرية .

ولعل هذا لم يخرج بنا عن الموضوع مادمنا بصدد الحكم على أن الآداب مستقلة بعضها عن بعض نوعا ما من الاستقلال ، وأن بلاغة هذه الآداب تختلف باختلاف الزمان والمكان والانسان

مميزات هذا الأدب

لا بد لى لكى أعطى صورة صادقة عن هذا الادب المغربى — من أن أجمل مميزاته فى ميزتين اثنتين أستطيع الدعوى بأنهما كافية فى اعطاء هذه الصورة واذا كان لكل دعوى دليل فدليلى الذى أقدمه بين يدى القارىء الكريم هو أن يصغى أو يتأمل ما يأتى : —

(١) السهولة : يمتاز الادب المغربى بأنه سهل فى لفظه ومعناه ، أسلوبه وخياله ، تعبيره وتفكيره ، ليست فيه تلك الصعوبة التى قد تضر بضروب الادب وألوانه أكثر مما تنفع .

إن للتفكير مجاله فى الحقيقة والخيال ، وللتعبير مجاله كذلك ، ومادامت الحقيقة

ثابتة واضحة ، ومادام الخيال توأما لها فالمنتظر أن الأدب سيكون على جانب عظيم من السهولة فى التفكير الذى يخامر الرءوس ، وفى التعبير عما يجول بالنفوس ، وما ذلك إلا لأن مصادر الوحى والالهام من طبيعة وبيئة وحياة سهلة كذلك

ومما يزيد الطبيعة وضوحا تميز الفصول السنوية بعضها عن بعض ، فلكل أوانه وموسمه إلا أن الأدب له فى كل موسم موسم

فللشتاء الذى هو موسم المطر أوانه الذى يجتمع فيه المحبان فى ظلال بنت العنب (الخمر) وزقزقة العصافير تلك هى الصورة السحرية التى يصورها لنا ابن الطيب العلمى مؤلف الانيس المطرب :

أقول للمحبوب فى روضة والطل يسعى والثرى يشرب
زوج لبنت الكرم ابن السما فالطير فى منبره يخطب

وللربيع أوانه الذى يقترن فيه ركوب الخيل بركوب الازهار على قصبان الاشجار ، وتشدو فيه الطير فوق الغصون فتهتز هذه بدورها وكأنها ترقص على تغريدها تلك هى الصورة الجميلة التى تخيلها القاضى ابن زنباع فأداها ببعض أبيات من قصيدة يصف بها الربيع خير اداء :

أعريت خيلك صيفها وخريفها وشتاءها ، هـذا أوان ركوبها
أو ماترى الازهار مامن زهرة الا وقد ركبت فقار قضيبها
والطير قد خفقت على أفنانها تلقى فنون الشدو فى أسـلوبها
تشدو وتهـتز الغصون كأنما حركاتها رقص على تطريبهـا

إلى غير ذلك مما لاأريد الاطالة به فى هذا الموطن .

فهذا الشعب الذى طبيعته فى أساسها غير عربية . والذى عربيته ليست أصيلة فيه ، لاينتظر منه التقعر فى اللفظ والتعمق فى المعنى ، ذلك التقعر والتعمق الذى قد يزرى بالآداب حين ارادة الحكم لها أو عليها وحين عقد الموازنة بين بعضها وبعض .

وانما المنتظر أن تكون لهذا الادب رقة كتلك التى نراها فى الرياض والازهار والاطيار ، وسلاسة كسلاسة المياه المنصبة خلال الجداول والانهار وجزالة كتلك التى تحكيها الجبال الراسيات ويمثلها البحر فى هيجانه وموجانه ... إلى غير ذلك

من فنون القول وصنوف المقول فيه مما يصور الطبيعة والبيئة والحياة ، ويعبر عنها أصدق تعبير . وهذا غاية ما نرجوه من أدب شعب عرف طبيعته فاستطاع أن يعبر عنها واستطاع أن يحسن ذلك التعبير .

(٢) الصدق : ويتجلى صدق هذا الادب فى أنه يتحرى الحقيقة على الخيال ، بل ربما كان خياله فى الواقع حقيقة ، لأنه يسبل عليه ثوبا من الصدق يصير به كأنه من الحقيقة فى الصميم . وهل الخيال إلا صورة صادقة للحقيقة تنعكس على مرآة العقل الصقيلة فلا نلبث أن ندرك الصلة بين الصورتين ، وأنها صلة قربى وشيجة . مثل الحقيقة والخيال فى هذا كمثل من يقف أمام المرآة .... لايلبث أن يوحد بين صورتيه : الحقيقة والتى يراها أمامه ، ثم لايلبث أن يدرك الفرق وكأنه لافرق .

إن هذا الادب معبر عن البيئة التى نبت فيها لانه يغنى ويشدو بطبيعة قدلاتحصل عليها فى أى بلد من البلاد . فهذا البلد الذى يحب الفروسية من قديم الزمن ، نجد حبه لها لايدانيه الاحبه للأدب الذى يستطيع الاديب أن يجمع بينه وبين الفروسية فى حلبة واحدة ويقارن بين الاثنين فيعطينا صورة هى — بلابرهان — من صور المغرب الاقصى .

يجب على الاديب قبل التعبير والتصوير أن يقف أمام المنظر ، بل يجب عليه أن يطوف حوله وبين جنباته طويلا حتى يعطينا صورة حقيقية كالتى رآها وانطبعت بها نفسه . ولا جدال فى أن تصوير من رأى وجرب غير تصوير من سمع وقلد ، وأن تصوير ما انطبع فى النفس وتأثرت به غير ذلك الذى يعتمد على غيره

فها هوذا القاضى عياض ، قد رأى منظرا طبيعيا يتمثل فى خامات زرع بينها شقائق نعمان هبت عليها رياح ، فأخذ يصور ذلك بصورة يكفى أن يقال فيها : انه الخيال الذى يتفق والحقيقة : —

أنظر الى الزرع وخاماته تحكى وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

ويتجلى صدقه أيضا فى وصف الطبيعة المغربية الخاصة ، ووصف حياة المغاربة المتمازة عن غيرها . فهو مصور لها فى سرائها وضرائها : ففى السراء يعبر بالتغريد

فى جنات الارض . وبالتحليق فى أجواز السماء ، وفى الضراء يعبر بالنوح والشجن باديا عليه الالتجاء والرجوع الى الله وهو اذا لم يجد وسيلة للتعبير فى تلك الايام السود عن تلك المحن والدواهى ، فقد يكون وقوفه عن السير والتقدم ضربا من هذا التعبير الصادق ، وهل الاضراب عن العمل فى الوقت الحاضر ، إلا وسيلة صادقة للتعبير عما يجول بالخواطر ؟

إن احكام التفكير واتقان التعبير ينتجان حسن الاداء ، وهو الادب الحى الذى لا يموت

عصور ادبنا المغربى

لقد جرت عادة المؤرخين والأدباء ، أن يقسموا العصور على حسب الانقلابات السياسية والحركات الهائلة التى تمر بالشعب فى حياته التى يحياها . وإذا كان المؤرخون محقين فى هذا التقسيم فى معظم الأحيان ، فان الادباء قد لا يكونون كذلك فى بعض الأحيان . فليس للأدب عمر خاص ينتهى بانتهاء أجله كالانسان ، وليس له حياة تابعة لغيره فيحيا بحياة الدولة ويموت بموتها . وانما هو فى طريقه يواصل السير مادام لا تصدمه عقبات فى تاريخ الدولة الجديدة .

وعلى هذا الأساس الذى لا يعتبر الانقلابات السياسية فروقا أساسية بين بعض العهود وبعض ، سندمج عهد دولة بنى أبى العافية ودولة مغراوة وبنى يغرن فى عهد الادارسة الذى استغرق زمنا أطول مما استغرقته الدولتان اللتان تلتاه ، والذى كان عرق الادب فيه ينبض بماء الحياة ، كما سندمج عهد المرابطين فى عهد الموحدين ، وعهد بنى وطاس فى عهد بنى مرين[1] . وهناك عصران مستقلان قائمان بذاتهما هما : عصر السعديين وعصر العلويين . فتكون عصور الادب على هذا خمسة ، سنفرد كل عصر منها بكلمة تبين حال الأدب فيه بوجه عام :

(١) عهد الادارسة : (١٧٢ - ٣١٣ هجرية) آل أبى العافية : (٣١٣ - ٣١٢) المغراوة وبنى يغرن : (٣٦٢-٤٠٠) المرابطين : ٤٠٠-٥٦٤)الموحدين : (٥١٤-٣٦٢) مرينيين : (٦١٠ - ٨٧٦) الوطاسيين : (٨٧٦ - ٩١٥) .

(أ) عصر الأدارسة بما فيه عهد الدولتين التاليتين (١٧٢ — ٤٠٠ هـ):

إن المولى إدريس بن عبد الله هو أول من استقل بالمغرب، عن الخلافة العباسية بالمشرق، فأسس هناك أول دولة عربية. وان مالاقاه من ضروب التكريم والمؤازرة، جعله يصلح من المغرب وأهله. وجعله يستولي على المغرب الاوسط من أول سنة، بما قضى على هرون الرشيد بالخوف من بسط يد هذه الدولة الفتية على ما كان تحت ظل الخلافة العباسية، فأنفذ له من قضى على حياته بالحيلة والسم الناقع

إن خبر هذه الدولة مسجل على صفحات التاريخ بماء الفخار، فليرجع اليه من شاء التوسع، وانما نريد الوصول هنا الى القول بأن حركة الفتوح هذه التي قام بها ادريس وابنه الاصغر من بعده (١٨٨ — ٢١٣)، لم تكن لتلفت الدولة عنها الى الناحية الادبية وانما كان همها توطيد مركزها أولا وقبل كل شيء.

ثم ان حدوث الفتنة بين أبناء ادريس الاصغر، وتقسيمهم المغرب إلى مناطق حكم بينهم حسب اقتراح جدتهم السيدة كنزة، كل هذا مهد السبيل إلى قيام دولة آل أبي العافية الجديدة على أنقاض الدولة الادريسية، بعد حروب استمرت بين الطرفين، وظل في بعضها الحسن (٢١٠ — ٢١٣) (من أسباط المولى ادريس) يطعن فرسان هذه الدولة في المحاجم الواحد تلوالآخر حتى لقب «بالحجام» كما يقول الشاعر:

وسميت حجاما ولست بحاجم ولكن لطعن في مكان المحاجم

وظل موسى ابن أبي العافية مؤسس الدولة الجديدة (٢١٣ — ٢٤١) يطارد الادارسة حتى طردهم من فاس (عاصمتهم الرئيسية) فالتجأوا الى بني عمهم بالريف فيما يعرف بقلعة حجر النسر، ولكن هذا الطاغية حاصرهم أيضا هناك وأراد استئصالهم لولا أن أكابر دولته لم يوافقوه على قطع دابر أهل البيت من المغرب فاستحيا عند ذلك وارتحل عنهم الى فاس مقر حكمه. ثم ما لبثت دولة رنانة من مغراوة وبني يفرن أن تظهر في أفق المغرب حتى عج هذا الافق بدخان الحروب والفتن الداخلية الطاحنة.

وما نريد في هذه العجالة احصاء الفتن والاضطرابات التي حصلت بين الدول

الثلاث المتعاقبة ، وانما نزيد اضافة أنه طوال وجود الدولة الفاطمية (التى ظهرت سنة ٢٩٧ هـ أواخر القرن الثانى الهجرى) بافريقية (تونس) والنزاع قائم بينها وبين الدولة الاموية بالاندلس على المغرب الاقصى .

هذا هو العصر الاول الزاهر لا بفنون الآداب ولكن بفنون الحرب والقتال فما عسى أن يكون مركز الادب فيه . بل ماذا ينتظر من أمة هذا شأنها فى التقلب والانقسام على نفسها . وفى التشوق للحكم على أيد مختلفة ! لاينتظر منها بالطبع أن تبرز فى الاداب والعلوم والفنون بقدر ما برزت فى فنون الطعان وعلومه وآدابه ان كانت للطعان آداب .

إن هذا العصر مبكر بالنسبة لاولئك البربر (السكان الاصليين) الذين لم يتغلغل فيهم الروح العربى ، ولا الثقافة العربية كل التغلغل . صحيح أنهم تقبلوا الاسلام بصدر رحب ، يوم أشربوا فى قلوبهم بشاشته التى خالطت منهم اللحم والدم ، فكانوا أول سلاح لنشر دين التوحيد فى ربوع الاندلس . ولكنهم سرعان ما رجعوا الى أنفسهم فظلوا ينقبون بين خفاياها كى يجدوا لها منفذا الى الحكم ومباشرة السلطه الزمنيـة ، ان لم يكن فى ظل دولة حالية . فى ظل دولة جديدة يسعون فى انشائها ، مادام لهم الحق فى هذا بصفتهم أعضاء فى هذا المجتمع الإسلامى الجديد . ان هذه الحروب والفتن لاتشغل الادباء عن التفكير والانتاج فحسب ، ولكنها قد تقضى عليهم القضاء المبرم

وعامل آخر من العوامل التى ساعدت على خمود الأدب فى هذا العصر ، هو أن عدد العرب كان به قليلا نسبيا لايكاد يؤثر فى العقلية البربرية السائدة . إن البلاد كانت فى حاجة ملحة الى رسل الثقافة العربية ينشرون لواءها فوق هذه الاراضى الممتدة فى مدة أقل وبصفة أسرع . ولكن امداد هذه البلاد بالمهاجرين العرب وبرسل الثقافة العربية ، لم يكن متوافرا ، ذلك لان خط السير للهجرة كان متجها غالبا الى الاندلس المزدهرة ، ولان الانسجام التام لم يكن قد حصل بعد بين هذين القطرين الشقيقين .

ويجب ألا ننسى ذلك الثغر الجميل (سبتة) الذى ظل يحمل مشعل الثقافة

العربية فى حين كان المغرب جله فى ظلام دامس .

ولم نقل كله لأننا استثنينا القاعدة الادريسية (فاس) فالراية الأدبية فيها ظلت تخفق فى زميلتها (سبتة) .

إن موقع سبتة على البحر المتوسط (الرومى) وقربها من العدوة الاندلسية جعلها محطاً لرحال كثير من الأدباء والعلماء أولا ، وسوقا رائجة للأدب والعلم ثانيا . ولو لم تكن حركة هاتين المدينتين الادبية مقصورة عليهما بالذات نظرا للحروب والفتن الداخلية ، لكانت هناك وجهة نظر أخرى فى الحكم على أدب هذا العصر وهو أنه لايسر الناظرين إن لم يكن يحزنهم ؛ ولكن الذى يخفف وقع هذا الحكم على النفس هو أنه منصب على المجموع لا الجميع .

(ب) عصر الموحدين بما فيه عهد المرابطين (٤٠٠ — ٦١٠)

أما وقد حكمنا على العصر المتقدم بالانحطاط الذى فلا غرابة فى أننا سنضطر الى فترة انتقال بين عصر الخمود وعصر الحركة ، ولا غرابة أيضا فى أن تكون هذه الفترة هى مدة حكم المرابطين .

وهى وان كانت طويلة إلا أنها كافية فى بعث الأمن والطمأنينة فى أرجاء البلاد وفى ايقاظ الروح الأدبى والعلمى فيها .

ولكى يرقى أدب هذا العصر فانه اتخذ سلما ومتكأ يصل به الى ما يبغيه من درجات الكمال والرقى . هذا السلم أو المتكأ هو الأدب الاندلسى ؛ فلقد تأثر الأدب فى عهد المرابطين ، بالأدب الاندلسى تأثرا شديدا ، كما تأثر أدباء هذا العهد بأدباء الاندلس أيضا . ذلك لأن الاتصال بين الطرفين كان قائما ، ولأن الحركة الأدبية بالأندلس كانت مزدهرة تؤتى أكلها كل حين .

ان الشعور بالنقص لهو الشعور بالواجب فلا عجب أن يكون التقليد والمحاكاة هى الخطوة الاولى فى سبيل اداء هذا الواجب . وهى خطوة طبيعية يخطوها كل من آمن بوجوب مسايرة الزمن وأهله ، إن لم يكن فى مقدمة القافلة ففى وسطها على الأقل

ومما دعا الى اتباع هذه الخطة خطة التأثر بالادب الاندلسى — زيادة على الاتصال المباشر — ما كان يغلب على الدولة المرابطية من صبغتها الدينية . ونحن نعلم أن نهضة عبدالله بن ياسين من رؤساء هذه الدولة كانت دينية محضة أساسها

الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى الله حق جهاده ، نعلم ذلك من نفس التسمية التى كان سببها مرابطة عبدالله مع أصحابه الثمانية فى جزيرة يعبدون الله فيها بعد أن كاد ييأس من اتباعه فى غيرها فكانت هذه المرابطة خير دعاية لجلب الناس واستمالتهم فكان النجاح فى المهمة وكانت الدولة ولقد تعب الناس فى محاولة معرفة السبب الذى من أجله دعوا بالملثمين أيضا الى أن أتى الشاعر فعبر عن الحقيقة الواقعة أو أنه هدى الناس إليها إذ قال :

لما حووا احراز كل فضيلة غلب الحياء عليهم فتلثموا

وما دامت الدولة مصبوغة بالصبغة الدينية فلا غرابة فى أن تصطبغ بها النهضة أيضا ، ولا غرابة كذلك فى أن تقرب الدولة العلماء والفقهاء على غير علم من الأدباء والشعراء ، وذلك على الرغم مما جادت به قرائح هؤلاء من مدائح راحت ضحية فى سبيل العلم .

هذه الروح الدينية لم تكن متعمقة ذلك التعمق الذى تنشأ عنه الخلافات المذهبية والآراء المتضاربة التى كانت سببا من الاسباب التى فرقت شمل الوحدة الاسلامية بالمشرق ، وانما كانت يسيرة يسر الاسلام ومبادئه ، ومشبعة بروح السلف الصالح وذلك قبل أن يتألق — فى آخر هذه الدولة — نجم جديد كان فيما بعد مؤسس دولة الموحدين ؛ ونعنى به محمد بن تومرت المعروف بالمهدى

ذلك النجم الذى كان شروقه بالمشرق وأبى غروبه بالمغرب قبل أن يؤدى رسالته على الوجه الأكمل ، فلقد طاف بالبلاد الاسلامية الشرقية ولقى تقديراً من رجالها أمثال أبى حامد الغزالى وقدم منها مزوداً بمعارف جديدة ، وبطريقة الاشعرى فى تفسير القرآن ، تلك الطريقة التى لم يرو فيها حرفا واحداً عن المفسرين وانما اعتمد على ما كان يختلج به صدره ، فلم يسكن بالمغرب الاسلفيون يمرون بالمتشابهات مرور الكرام ، إلى أن أتى (المهدى) فحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الاشعرية .

وكان المهدى — رغم بربريته التى كان يؤلف بها — فصيحا لسنا يستميل الجماعات بألفاظه العذبة مما حدا أمير المسلمين على بن يوسف بن باشتين ٥٠٠ ٥٣٧

أن يعقد مناظرة بينه وبين علماء حضرته ، فكان يسكتهم جميعا ويخجلهم ولولا اعجاب الامير به غاية الاعجاب لما سلم من أذاه ولاسيما أن وزيره (مالك بن وهيب) حرضه على قتله قائلا : هذا رجل مفسد لاتؤمن غائلته ، ولا يسمع كلامه أحد إلا مال اليه .

فأمثال هذه المناظرة ان كانت تدل على شيء فانما تدل على أن دولة الادب صارت فى رهان واحد مع دولة الفقه والعلم وبينما نرى فى عهد الدولة المرابطية من يتلبس بلباس الفقهاء كى يصل المناصب العالية ويتولى الوزارة كما حصل من مالك بن وهيب الآنف الذكر ، نرى فى عهد دولة الموحدين من ينهض الى الوزارة على أكتاف الدولة الادبية ، وذلك كابن جعفر بن عطية المتوفى سنة ٥٥٢ الذى كان يصاحب أميره عبدالمؤمن بن على فى غدواته وروحاته ، والذى اتفق مرة أن صاحبه الى بعض بساتين مراكش ، وبينما هما فى طريقهما اذا بوجه جارية يطل من شباك ، وكانه الشمس الضاحية فنظر اليها الامير فأعجبه حسنها فقال ارتجالا :

قدت فؤادى من الشباك إذ نظرت

فقال ابوجعفر : حوراء ترنو الى العشاق بالمقـــل

فقال عبدالمؤمن : كانما لحظها فى قلب عاشقها

فقال أبوجعفر سيف المؤيد عبد المؤمن بين على

هذا الأديب الذى ندم الامير عليه بعد الايقاع به بسبب ذنب لم يغفره له . فلقد جمع الشعراء وأراد أن يمتحنهم بهجوه فلم يشفوا غليله فقال كلمته الخالدة : « ذهب ابن عطية وذهب الادب معه »

ولعل نظرة الدولة الموحدية إلى الادب نظرة العطف والتشجيع مما ساعد كثيرا على ازدهار الأدب فى هذا العصر ، إذ كان عبدالمؤمن منحة من الزمن وجمع الى حسن سياسته حسن التصرف فى الادب وفنونه . ولقد مدحه محمد بن أبى العباس السمعانى ببيت استعاده منه مرارا وأمره بأن يقتصر عليه قائلا له : لقد قلت فى هذا كل شيء . وأجازه عليه بألف دينار ولعل النفس تتشوف الى هذا البيت :

ماهز عطفيه بين البيض والاسل مثل الخليفة عبدالمؤمن بن على

ولقد أورد صاحب المعجب فى وصف احتفاله ببيعة أهل الاندلس له على

ظهر جبل طارق الذى سماه هو وجبل الفتح، ما أورد بعضه قال : وكان يوم عظيم اجتمع فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدوة والاندلس مالم يجتمع لملك قبله . واستدعى الشعراء وكان على بابه طائفة أكثرهم مجيدون فكان أول من أنشده أبو عبدالله محمد بن حبوس من أهل فاس قصيدة أجاد فيها ما أراد قال فيها :

بلغ الزمان بهديكم ما أملا وتعلمت أيامه أن تعدلا
وبحسبه ان كان شيئا قابلا وجد الهداية صورة فتشكلا

وأنشده ابن الشريف المعروف بالطليق المروانى :

ما للعدا جنة أوقى من الهرب

فقال عبد المؤمن : إلى أين ؟ الى أين ؟ رافعا بها صوته فقال الشاعر :

أين المفر وخيل الله فى الطلب ؟

وأين يذهب من فى رأس شاهقة وقد رمته سماء الله بالشهب
حدث عن الروم فى أقطار أندلس والبحر قد ملأ العبرين بالعرب

فلما أتم القصيدة قال عبدالمؤمن : بمثل هذا تمدح الخلفاء .

وأنشد ابن سيد الاشبيلى الملقب باللص :

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل وانظر إلى الجبل الراسى على جبل
انى استقر به ؟ انى استقر به ؟ أنى رأى شخصه العالى فلم يزل

فقال له عبدالمؤمن : لقد أثقلتنا يارجل ، فأمر به فأجلس .

إلى غير ذلك مما لانزيد به استقصاء وانما مجرد تمثيل فحسب . هذه نظرة هذا الخليفة إلى الادب والأدباء . أما نظرته الى العلم والعلماء ، فتتجلى فى أنه أمر فى سنة ٥٥٠ هـ بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى الأصول من الكتاب والسنة واستنباط الاحكام منها ، ثم كتب بذلك الى جميع طلبة العلم من بلاد الاندلس والعدوة . إن النهضة التى حظى بها الفقه فى الدولة المرابطية أنتجت كثرة المحصول مما حدا بأميرنا أن يقوم بحركة التطهير هذه . ولا ريب فى أنه لم يحمله على هذا إلا حبه للبحث والاستطلاع من جديد ، ثم حبه لرقى العلم والأدب معاً .

لقد أصبح الأدب المغربي الآن قائما بنفسه بعد ما كان يعتمد على أخيه الاندلسي في تخطي العقبات التي كانت تعوق سيره واطراده في النمو بين حين وآخر ولم تكن غضاضة على العقلية المغربية في هذا ، مادام أغلب الشعب كما تقدم من العنصر البربري ، وصعب على هؤلاء أن يطفروا أو يصلوا القمة سراعاً في آداب هي في الأصل ليست آدابهم ، وانما التعلم بالتعليم .

ولقد استطاع الادب المغربي أن ينهض من كبوته التي أصابته من جراء غلبة النهضة العلمية عليه أول الامر ، كما استطاع آخر الامر أن يتسابق في مضمار واحد مع آداب عصره . فلم يعد يتأثر بأدب الاندلس إلا كتأثره بأدب غير الاندلس . بل الحقيقة أنه لم يبق مجال للتأثر الآن ، لأنه خلفه مجال آخر جديد هو مجال المنافسة الادبية بين القطرين .

عصر المرينيين وما فيه عهد الوطاسيين (٦١٠ — ٩١٥)

إن ارتباط الأدب بالعلم ونهضتهما مما يجعلان الأدب في القمة ، ويجعلان الانتاج الادبي في أعلى درجة من سلم الرقي الفكري فلا تخاف على مركز الأدب في هذا العصر المريني ، بل لانخشى شيئا إذا قلنا أن سنة النشوء والارتقاء (سنة الله في أرضه) ظلت مطردة لم تقم في وجهها عقبات تعوقها عن السير والنمو الطبيعي .

ولقد كان التقدم شاملا في جميع ميادين الادب والعلم ، فحركة التطهير في الكتب الفرعية في العصر الموحدي لم تؤت أكلها في ذلك العصر وحده وفي دائرة العلم المحدودة فحسب ، وانما كانت لها اليد الطولى في سبيل رقي الأدب في هذا العصر التالي .

ان الوسط الادبي في هذا العصر كان على غاية من العلو اشترك في بنائه جميع الطبقات من السوقة إلى الملوك . ولقد أغرى هذا الوسط الفكري الراقي كثيرا من ذوي الحيثيات وأرباب الشخصيات الادبية فجعلهم يؤمون حواضر المغرب ومدنه التي لها يد في تمكين العرش الادبي . وجعل أمثال ابن الاحمر وابن الخطيب وابن خلدون يأوون الى كنف الدولة المرينية ويستظلون بظلها .

إن هذه الدولة عربية الأصل تمت إلى قيس عيلان ، فلا نعجب إذا كانت خدمت المغرب خدمات جليلة فى ظل لواء الاسلام وفى دائرة العروبة المجيدة . ولا نعجب أيضا إذا رأينا الامتزاج والانسجام التام بين العرب والبربر وفناء الجميع فى سبيل المصلحة العامة وفى خدمة الوطن الذى يحبه الجميع .

وان هذه النظرة العربية الاسلامية لتعيد إلى الأذهان ماكان من عز الاسلام ومجده الذى لايفنى . وهذه النظرة يعبر عنها أحسن تعبير الأمير عبد الواحد المرينى بقوله :

فرقت فى الميدان كل مليك وجمعت بين جراءة ونسوك
وجعلت للاسلام حداً مالكا كيلا يعيره العدا بسلوك

وهاهو ذا السلطان أبو عنان المرينى (٧٤٩ — ٧٥٩) يعطينا صورة عن طريق غير مباشر لما يجب أن يكون عليه أمير المسلمين أو الرئيس اطلاقا :

وإذا تصدر للرياسة خامل جرت الأمور على الطريق الأعوج

إن القوة الأدبية لتسير جنباً إلى جنب مع القوة السياسة فى هذا العصر ، فكانت الدولة السياسية على أشد ماتكون قوة وصولة ، وكانت الدولة الأدبية تجاريها فى هذا أيضا مع العلم بأن صولة الأدب هى ازدهاره وعظمته . وإذا كان الملوك قد اشتركوا فى الحركة الأدبية وفى أعلاء بنيانها ، فلا ندهش إذا ما أنتج لنا الأمير أبو الحسن المرينى مثل هذه الموشحة اللطيفة :

مطلع : فى نغمة العود والسلافة والروض والنهر والنديم
أطال من لامنى خلافه فظل فى نصحه مليم
دور : دعنى على منهج التصابى ما قام لى العذر بالشباب
ولا تطل فى المنى عتابى فلست أصغى إلى عتاب
لا ترج ردى إلى جواب والكاس تفتر عن حباب
والغصن يبدى لنا انعطافه إذا هفا فوقه النسيم
والروض أهدى لنا قطافة واختال فى برده الرقيم ..

وتصل أبياتها الى خمسة وعشرين بيتا عدا المطلع (انظرها فى نفح الطيب ص ٢٢١

ج ١) وفى هذا العصر بدأ تكون الشعر العامى الذى ظن بعضهم أنه كل أدب المغرب أو أنه يعطى صورة حقيقية منه : وهى صورة مهما اعتبرناها صادقة لاتدل إلا على أن الشعب المغربى أراد أن يعبر عن حياته اليومية فراح ينشد الشعر بلغته العامية على منوال الشعر العربى الفصيح فى أوزانه وبحوره وأغراضه .

إن هذا الشعر العامى كان يسير فى ركاب واحد مع زميله الفصيح ، فلقد تعددت مناحيهما وأغراضهما حتى أنهما ليعطيانا صورة حية للحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى فى ذلك العصر .

وكان من فحول هذا اللون من الادب ابن شجاع وهو من أهل تازا ، على ابن المؤذن سلمان ، والكفيف وهو من زرهون .

ومما قال ابن شجاع فى قصيدة وهو يصف حالة اجتماعية خطرة

المال زينة الدنيا وعز النفوس يبغى وجوها ليس هى باهيا
فيها كل من هو كثير الفلوس ولوه الكلام والرتبة العليا
يكبر من كثر مالو ولو كان صغير ويصغر عزيز القوم إذا افتقر
من ذا ينطبق صدرى ومن ذا يصير يكاد يتفقع لولا الرجوع للقدر
حتى يلتجى من هو فى قومو كبير لمن لا أصل عندو ولا لو خطر

ومن مقطوعة له يصف لنا الحب الخائن :

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان أهمل يافلان لا يلعب الحسن فيك
مامنهم مليح عاهد إلا وخان • قليل من عليه تحبس ويحبس عليك
يهبوا على العشاق ويتمنعوا ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال
وان واصلوا من حينهم يقطفوا وان عاهدوا خانوا على كل حال
مليح كان هويت لو وشت قلبى معو وصيرت من خدى لقدمو نعال

وأما الشاعر الكفيف فلقد ابدع فى مذاهب هذا الفن ، ولقد وصف رحلة السلطان أبى الحسن وبنى مدين إلى افريقية (تونس) يذكر هزيمتهم بالقيروان ويعزيهم بما وقع لغيرهم ، يقول فى مفتتحها وهو من أبدع مذاهب البلاغة فى

الاشعار بالمقصد فى مطلع الكلام ويسمى براعة الاستهلال :

سبحان مالك خواطر الامرا ونواصيها فى كل حين وزمان
إن طعناه عطفهم لنـــا قسرا وان عصيناه عاقب بكل هوان

وهى مقطوعة طويلة جداً تشبه أن تكون ملحمة ، وقد ذكر بعضها فى (المقدمة). وكان هناك نوع من الشعر تشوبه روح الفكاهة ، مما يتفكه به الادباء فى مجالسهم أو يداعب فيه الصديق صديقه . فهاهو مالك بن المرحل يداعب شيخوخته بهذين البيتين :

ياأيها الشيخ الذى عمره قد زاد عشرا بعد سبعينا
سكرت من أكواس خمر الصبا خمـــدك الدهر ثمـــانينا

ولابى عبد الله المكودى وقد بعث له بعض أخوانه بشراب مذيق أى ممزوج ماء :

بعثت بخمر فيه ماء وإنمـــا بعثت بماء فيه رائحة الخمر
فقل عليه الشكر إذ قل سكرنا فنحن بلا سكر وأنت بلا شكر

إن شعراء هذا العصر وأدباءه الكثير يعجز المقام والوقت عن حصرهم ، ولكن لابد لنا من أمثلة من الشعراء ونماذج من شعرهم كى ندعم بها القول فنقول : قد تقدم القول بأن العرش الادبى فى هذا العصر اشترك فى تمكينه جميع الطبقات على السواء . وتقدم كذلك رأى الزجال ابن شجاع فى الحب والهوى ولكننا نرى أن السلطان أبا العباس المرينى يخالفه فى الرأى مخالفة تامة ، وقد لانستطيع لهذا تعليلا اللهم إلا إذا كان هوى السلطان سلطان الهوى :

أما الهوى ياصاحبى فألفته وعهدته من عهد أيام الصبا
ورأيته قوت النفوس وحليها فتخذته ديناً إلى ومذهبا
ولبست دون الناس منه حلة كان الوفاء لهـــا طرازاً مذهبا
لكن رأيت له الفراق مغصصا لامرحباً بفراقنا لامرحباً

وبمناسبة ذكر الفراق نورد بيتين لابن هانىء السبتى فى النوى قال موزياً :

مالنوى مدت لغـــير ضرورة ولطالما عهدى بهـا مقصورة

إن الخليل وإن دعته ضرورة لم يرض ذاك فكيف دون ضرورة

إن سبته بما انتجته من خول الادب لتستحق أن تسمى « بمصنع الأدباء » ولعل الطبيعة قد أعدتها لتكون كذلك . ويكفيها فخراً أن تنجب أمثال مالك بن المرحل الذى يقول فى وصفها :

اخطر على سبتة وانظر الى جمالهـــا تصبو إلى حسنه
كأنها عود غنـــاء وقد ألقى فى البحر على بطنه

ذلك الشاعر الذى قاسى من محبوبه ماجعله يفكر فى رفع الدعوى عليه أمام محاكم الحب ، وماذا كانت تكون النتيجة لو وجدت هناك محاكم للحب حقيقة ؟ الحكم فى هذا للقضاء ! وان كان الظاهر أن حجج المدعى قوية :

شكيت لقاضى الحب ، قلت : أحبنى جفونى وقالوا أنت فى الحب مدعى
وعندى شهود بالصبابة والاسى يزكون دعواى اذا جئت أدعى :
سهادى وشوقى وا كتئابى ولوعتى ووجدى وسقمى واصفرارى وأدمعى
ومن عجب أنى أحن اليهم وأسأل شوقا عنهم وهم معى
وتبكى دما عينى وهم فى سوادها ويشكو النوى قلبى وهم بين أضلعى

ولولا ضياع شعر هذا الشاعر الذى اعترف ابن خلدون بشاعريته على تحفظه المعهود فى اصدار أحكامه لعرفنا عنه الشىء الاكثر .

وأقول . ان المغاربة لازالوا مرضى بحب الكتب وملء الخزانات بالمطبوعات والمخطوطات النادرة ، ولو ساعدوا على نشرها لكان الادب المغربى — أولا وبالذات — ملء الافواه والاسماع ، ولكان للنظريات العلمية المغربية — ثانيا — كراسى فى معاهد العلوم الحديثة على اختلافها .

وخلاصة القول أن الادب فى هذا العصر كان مرآة صافية لحياة الشعب ترتسم عليها عواطفه وميوله أكثر منه فى أى وقت مضى . فللحقيقة دون الخيال والوضوح دون التعمق المقام الاول ، كما أن للرقة فى غير ضعف والجزالة فى غير عنف مثل ذلك المقام أيضا .

وليت الامر يقتصر على هذا الحكم العادل فيحتفظ الادب بمركزه ، ولكننا نرى عهد بنى وطاس الذى تلا هذا العهد المرينى والذى أدمجناه فيه وكونا منهما عصرا واحدا ...، نراه عهد فتن وحروب لم يكد المغرب يذوق فيه طعم الراحة والطمأنينة ، ولم يستغرق هذا العهد لحسن الحظ زمنا طويلا ، فلم تلبث العناية الالهية أن أغاثت المغرب بالزعيم الذى أسس الدولة السعدية . فأعاد السلام والأمن الى البلاد ، كما قضى على الفتن والحروب التى كادت تقضى على دولة الادب ،

(د) عصر السعديين (٩١٥ — ١٠٥٠)

ان سنة النشوء والارتقاء كانت تكون مطردة لولا مايعوقها عن هذا الاطراد من حين لآخر . ولولا هذه العوائق لظل الادب مزدهرا سائرا فى طريقه لاشىء يعوقه .

لقد كانت الدولة الوطاسية — كما تقدم — أشغل من ذات النحيين مع أعدائها الداخليين والخارجيين ، فلا بد اذن من أن يشغل الادب والادباء شاغل أيضا وسط هذه الزعازع الهوجاء ، والامواج المتلاطمة ، الى أن يبعث اللطف الالاهى من يقود سفينة الادب الى شاطىء السلامة أولا ، ثم من يقوم بعمليات اسعاف الأدباء ثانيا حتى يفيقوا من غشيتهم فتطمئن على السفينة وعلى سلامة الركاب .

لقد قدم بمقدم الدولة السعدية الامن والسلام يرفرفان باجنحتهما على ربوع المغرب ، فعاد الادب تبعا لذلك حيويته وقوته ، وعاد يحلق بجناحيه من جديد فى أجواز السماء

ولعل مما يصور لنا الحركة الادبية فى أجلى مظاهرها تلك الخصومة الادبية التى تقوم بين الادباء بين حين وآخر . والتى تكون بين اثنين ثم تتشعب الى ثلاثة فينقسم الرأى العام الادبى حسب هذا التشعب فيتعصب كل فريق الى رأيه ومن ورائه أعوانه وأنصاره . وعلى هذا الاساس قامت خصومة أدبية فى مسألة الهيللة (لا إله إلا الله) وهل الحق سبحانه يدخل فى المنفى بلا؟ وهل تنتفى بها ألوهية الصنم وغيره مما يعبد بغير حق ؟ وقد لا يسمح الوقت ولا المقام بتبيين وجهة نظر كل واحد من أركانها

الثلاثة : الامام الخروبي (٨٩٧ - ٩٥٩) واليسغتني (٨٩٧ — ٩٥٩) والهبطي توفي سنة ٩٦٣ ، وإنما يسمح الوقت والمقام بأن نقول . إنها كانت على غاية من العنف والحدة حتى أراد السلطان (الشيخ السعدي ٩٤ - ٩٦٤) أن يتدخل فيعقد مجلسا للمناظرة بين الثلاثة ولكن الهبطي لم يرد الدخول فيها فلم يجد تدخل السلطان فيها شيئا . ولقد تعصب كل لرأيه وألفت في المسألة رسائل ، وظلت موضع نزاع شديد بين الطلبة وعلماء الكلام حتى أتى العصر العلوي فتصدى لها أبو علي اليوسي وألف كتابا قيما اسمه « مناهج الخلاص من كلمة الاخلاص » ويظهر أن اليوسي كان رائده الاخلاص فكان النصر حليفه في حل الاشكال ومن كلامه في كتابه قوله : واذ قد تعرضنا لكلام هؤلاء الأئمة فلا بد أن نتصفحه بعض التصفح ونشير الى ماعند كل واحد في كلامه مما لا بد من الاشارة اليه والتنبيه عليه معطيا أن شاء الله كل ذي حق حقه ومعطيا أيضا الحق حقه فان لحوم العلماء مسمومة والصدع بالحق سنه معلومة ... الخ

وقد يقال إن هذه المناظرة أقرب إلى التوحيد منها إلى الأدب . والجواب على هذا هو أن الأدب لا يعرف الحدود والقيود أو أن الأدب هو الاتساع في العلوم كما يقول ابن قتيبة .

إن عهد أحمد المنصور الذهبي (٩٨٦ — ١٠١٢) (من ملوك هذه الدولة) كان عهداً ذهبيا بالنسبة الى دولة الأدب ، فلقد كان بلاطه طافحا بالعلماء والأدباء من كل صوب وحدب وعلى رأسهم المقري صاحب نفح الطيب وأزهار الرياض وغيرهما . ولقد اتفق مرة أن ضم مجلسه ثلاثة أشخاص : مكي ، مدني ، مقدسي ، فقام المكي وقال : يا أمير المؤمنين ! إن المساجد الثلاثة التي تشد اليها الرحال قد نشد أهلها اليك الرحلة وأنشد : —

إن أمير المؤمنين أحمد بحر الندى وفضله لا يحمد
فطيبة ومكة أهلهما والمسجد الأقصى بذاك تشهد

ثم قال : أنه لم يتفق هذا لملك قصدت إبالته . قال المقري (راوي الحكاية) :

فتبسم لذلك أيده الله وأجزل لهم العطا ، دأبه بكل وافد عليه من أى بلد كان . لقد كثر عدد النوابغ فى هذا العصر فى ظل هذه الدولة الوريف ، وذلك بفضل تشجيع الدولة للأدب واقبال السلاطين أنفسهم على التأدب . فها هو ذا المنصور وها هو ذا غزله : —

حرام على طرف يراه منام وحل لجسم قد جفاه سقام
وكيف بقلب فى هواه مقلب وأنى له بين الضلوع مقام
فياشادنا يرمى الحشا أنت بالحشا أما لمحل أنت فيه ذمام ؟

وإذا كان الأمر كذلك بأن كان المنصور سلطانا : أحداهما زمنية والاخرى أدبيه فلا غرو فى أن يشرك معه فى سلطنه الزمنية زعيم الادب فى ذلك العصر ونعنى به الوزير عبد العزيز النشتالى (توفى سنة ١٠٣٢) ، ذلك الاديب الذى يقول عنه المنصور نفسه : أنا نفتخر به على ملوك الارض ، ونبارى به لسان الدين بن الخطيب ومنزلة ابن الخطيب غير خافية على أحد فهو إمام النظم والنثر فى الملة الاسلامية غير مدافع كما يصفه ابن خلدون بالحرف الواحد . وأما منزلة النشتالى فاذا تركنا شهادة المنصور جانبا وأقبلنا على هذين البيتين فقط من شعره استخلصنا منهما حكما يتفق ومكانته العالية فى رقة الاحساس وجودة النسيب :

حين أزمعت عند خوف البعاد وعدتنى من الفراق العوادى
قال صحبى وقد أطلت التفاتى أى شىء تركت قلت فؤادى

ولقد كان من دواعى القول تلك المناسبات (من حفلات ومواسم وأعياد) التى كانت تقام فتكون غذاء صحيا لفنون النظم والنثر . ومن هذه الاعياد التى بدأت بالمغرب وتكررت ولازالت الى الآن عيد المولد النبوى . ذلك العيد الذى كانت تتكرر به المباريات الشعرية بتكرر السنوات ، ومن هذه القصائد قصيدة لصاحبنا النشتالى وهى تربو على المائة بيت يقول فى مطلعها :

هم سلبونى الصبر والصبر من شانى وهم حرموا من لذة الغمض أجفانى

إلى أن يتخلص من مدح النبى صلى الله عليه وسلم الى مدح المنصور ثم يختتمها بقوله :

وهاتيك أبكار القوافي جلوتها تغازلهن الحور في دار رضوان
أتتك أمير المؤمنين كأنها لطائم مسك أو خمائل بستان
تعاظمن حسنا أن يقال شبيهها فرائد در أو قلائد عقيان
فلا زالت للدنيا تحوط جهاتها وللدين تحميه بمالك سلطان
ولا زلت بالنصر العزيز مؤزراً تقادلك الأموال في زي عبدان

ثم ها هي ذي صحة المنصور وقد انحرفت قليلا فتنحرف لذلك صحة العالم ولكن رب العالم شاء أن يبل عالمه من علته بمجرد إبلال المنصور من مرضه ، ذلك هو ما يعبر عنه النابغة الهوزلي :

تردى أذى من سقمك البر والبحر وضجت بشكوى جسمك الشمس والبدر
وبات الهدى عليك مسهدا وأصبح مذعورا الفؤاد الندى الغمر
فلما أعاد الله صحتك التي أفاق بها من غمه البدو والحضر
تراءت لنا الدنيا بزينة حسنها وعاد الى ابانه ذلك البشر
وصار بك الاسلام في كل بلدة بهنا ويدعو أن يطول لك العمر

الى أن يقول .

بقيت لهذا الدين تحمى ذماره ويحميك رب العرش ما بقى الدهر

هذه هي الناحية السياسية للمنصور نلتمسها في تضاعيف الكتب وقصائد الشعراء وأما الناحية الادبية له فقد نلتمسها في اختراعه أشكالا من الخط على عدد حروف المعجم وكان يكتب بها فيما يريد ألا يطلع عليه ، فاذا سقط الكتاب أو وقع في يد عدو أو غيره لا يدري ما فيه وهذا نموذج طيب ربما كان هو الاصل والحروف الشفرة ، المستعملة الآن . ولقد كان المنصور يتقن الخط المشرقي بازاء اتقانه الخط المغربي ، وحدث أن كتب بخط يده على طريقة أهل المشرق لكاتب سره أبي عبدالله بن عيسى يستدعي منه كتابا فبعثه اليه بن عيسى ومعه هذان البيتان

شقتني كئوس السرور دهاقا خطوط اتتني في مهرق
رأت كف أحمد في الغرب بحرا فجاءت اليه من المشرق

وكاتبه هذا هو مؤلف ، الممدود والمقصود من سنا أبي العباس المنصور ، قال المقرى : وهذه التسمية وحدها مطربة .

وكذلك عرف المنصور الرسائل الادبية وقدرها حق قدرها ليس فقط فى حدود الدولة التى يرأسها وانما تعدى ذلك فالتفت الى الاقطار الشقيقة الاخرى والى توثيق الصلات الادبية بين بعضها وبعض وبين أدبائها الذين هم مصباح الهدى والوئام فى كل العصور

فلقد استجاز المنصور أدباء مصر الشقيقة فى ذلك العهد فأجازه الامام محمد بن أبى الحسن البكرى بفصول فى البئر يعجبنى منها قوله فى ختامها وقد أدرك غرض المنصور من توثيق العلاقات الادبية على الدوام . « فمولانا يجاز من هذا العهد ، من جميع ما يجوز لهذا العبد ، بجميع ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عن أهل الامر ، وكذلك يجاز أهل العصر أجازة عام بعام ، ليكون أبناء الوقت جميعا على مائدة فضل مولانا وتحت ظلال ذلك الانعام ، فانه السبب فى تحصيل ذلك المرام (وهى مؤرخة ١٤ /٤/ ٩٩٢ هـ)

وكذلك أجازة العلامة بدر الدين القرافى صاحب ذيل الديباج وغيرهما من الادباء والعلماء الاجلاء .

وأن ازدهار هذا العصر كالذى قبله وبعده فى مختلف فنون الادب والعلم لتجعل الباحث فى حيرة وارتباك لانه لايدرى ما يأتى وما يدع . ويجب ألا ننسى عاملا مهما من عوامل ازدهار الادب فى هذا العصر ، هذا العامل هو الزاوية الدلائية التى أخذت بضبيع الادب آخر هذا العصر . فلقد كانت حصنا حصينا للادب والعلم وأخذت على عاتقها أن تنشر العلم وتؤدى طلبته فتخرج على يديها عدد عظيم من الادباء والعلماء . ولكن هذه الزاوية كانت لها مطامع سياسية اثر انقراض الدولة السعدية فقامت بحروب مع مؤسس الدولة العلوية الشريفة فاضطرته الى تقسيم المغرب بين الزاوية والدولة ، الى أن أتى المولى الرشيد العلوى (١٠٧٥ - ١٠٨٢) فقضى عليها القضاء المبرم كما سيأتى القول فى العصر الثانى

ان هذه الزاوية لتفخر بأنها كانت معقلا من المعاقل الحصينة للعلم والادب فى عهد ما ، وانها لتفخر كذلك بانها ظلت تمد العصر العلوى بزعماء الحركة الادبية زمنا غير يسير ، وذلك رغم انقراضها من هذا الوجود .

(٥) عصر العلويين (١٠٥٠ — ١٣٠٠) :

هذا هو آخر عصور الأدب المغربى التى أردنا الحديث عنها ؛ وهو وان كان يبدأ بقيام الدولة العلوية الحالية ، إلا أن الدراسة الأدبية لهذا العصر ستقف عند آخر القرن الثالث عشر الهجرى وان تتعداه إلى اليوم . وماذلك إلا لأن مراجع البحث فى هذه الفترة معدومة بسبب الظروف الحاضرة ، على أنه قد تواتينى فرصة أتمكن فيها من المراجع ومن الكتابة إن شاء الله .

أما فيما يتعلق بحياة الأدب فى هذا العصر فانها ظلت تواصل سيرها قدما ، وعلى الرغم من الحوادث التى صدمت الحياة الأدبية فى أول هذا العصر عند القضاء على الزاوية الدلائية ، إلا أنها ظلت منتصرة على طول الخط .

المولى رشيد (١٠٧٥ — ١٠٨٢) : إن الرشيد فى قضائه على هذه الزاوية يغفر له فعلته هذه أمران :

(١) خوفه السياسى على دولته الجديدة وعلى وحدة المغرب الذى يجب ألا يتجزأ

(٢) إكرامه لطلبة العلم وأساتذته من أهل هذه الزاوية بعد الايقاع بها .

فقد نقلهم جميعا الى العاصمة (فاس) ومن بينهم الاديب والعلامة أبو على الحسن اليوسى المتوفى سنة ١١٠٢ ، ذلك الأديب الذى يقول عن نفسه : لو شئت أن لا أتكلم إلا بالشعر لفعلت ، والذى رثى زاويته التى تخرج فيها بقصيدة تنيف أبياتها على الخمسين بعد المائة يقول فى مطلعها :

أكلف جفن العين أن ينثر الدرا فيأبى ويعتاض العقيق بها خمرا

وإذا عرفنا أنه بكاها وقال فيها ماقال ، وهو فى أحضان الدولة التى قضت عليها ، عرفنا المقدار الذى كان يتمتع به الأدباء من حرية القول فى ذلك العهد . وذلك هو الأديب الذى يشرح لنا علاقة الزهر بالغيث فى أسلوب ساحر :

ان بين الغمام والزهر الغـــض لرحما قديمة واخاء
بان إلف عن إلفه فتوارى في الثرى ذا وذاك حل السماء
فاذا ما الغمام زارت جنابا ه اذنت فيه بالحبيب اللقاء
ذكرت عهده القديم فحنت عند لقياه فاستهلت بكاء
فترى الزهر بارزا من خبايا ه يحيي الوفود والاصدقاء
بادى البشر والبشاشة جذ لان لبوسا من كل لون رداء
مملا من شمول شمس الضحى وهـــ وعلى بسط سندس خضراء
راقصا والصبا تهنيه والور ق غوانى القيان تشدو غناء

أما اليوسى العلامة فيكفى أن يقول فيه أبو سالم العياشى (١٠٣٧ — ١٠٨٠هـ) صاحب الرحلة المعروفة :

من فاته الحسن البصرى بصحبه فليصحب الحسن اليوسى يكفيه

المزاد القول بأن طلبة العلم ورجاله ظلوا يدرسون ويدرسون العلم والأدب ، وظلوا يكرعون من مناهل الثقافة العذبة ، ويواصلون الدراسة تحت ظل من يناصر العلم والادب ويعاضدهما من ملوك هذه الدولة وأرباب البلاط فيها .

فلنحمد الله على أن الحركة الادبية فى هذا العصر لم تكن أقل نشاطا منها فى أى عصر مضى . وكيف يموت الأدب وهذا الخليفة الرشيد يثيب على بيتين من الشعر قالها فيه شاعر جزائرى فيصله بألفين وخمسمائة أو خمسين ديناراً على رواية أخرى وهذا البيتان هما :

فاض بحر النوال فى كل قطر من ندى راحتيك عذبا فراتا
غرق الناس فيه والتمس الفقـــر خلاصا فلم يجده فاتا

انظر الى هذا الخيال البديع الذى يجعل من الفقر شخصا يبحث عن خلاصه من الغرق الذى هو نعمة وسلام على البلاد وأهلها ، ونقمة وحرب عوان على الفقر وحده ، ثم تكون النتيجة القضاء عليه قضاء مبرما ... حقا ان من الشعر لحكمة

أم كيف يموت الادب وهذا المولى محمد بن عبد الله (١١٧١ — ١٢٠٤)

يحتضن الادباء والشعراء ويحبوهم برعايته السامية ،فلقد ألف ابن الونان المتوفى سنة ١١٨٧ أرجوزته الشهيرة بالشمقمقية (لأن أباه كان صاحب نوادر وملح مع السلطان فكناه أبا الشمقمق) التي يقول في مطلعها :

مهلا على رسلك حادى الأينق ولا تكلفها بما لم تطق

والتي يقول عنها صاحب الاستقصاء (١٢٥١ — ١٣١٥) : « إنها من الشعر الفائق ، والنظم البديع الرائق ، أبان منشئها عن باع كبير ، واطلاع غزير ، على أخبار العرب وأيامها وحكمها وأمثالها ، بحيث أن من حفظها وعرف مقاصدها أغنته عن غيرها من كتب الادب » (ص ١٢٢ ج ٤)

ولكن ماحيلة الشاعر وقد تعذر عليه الوصول الى السلطان صاحب أبيه ؟ لم يعد في امكانه إلا أن يتحين فرصة خروجه في موكب من مواكبه الفخمة فيصعد على تشز من الارض ويصيح :

ياسيدى سبط النبي أبو الشمقمق أبي

فيعرفه السلطان ويأمر باحضاره الى القصر ، ثم ينشده الشاعر أرجوزته التي تقرب من ثلاثمائة بيت فتقع من المولى الموقع الحسن فيجزل صلته ويرفع منزلته

لقد تعددت الفنون الشعرية والاغراض الادبية بتعدد الادباء . وانتاج كل أديب ، ومن العسير أن أعطى في هذه العجالة صورة من كل غرض ، وانما حسبي أن أتخذ نموذجا يقاس عليه غيره . وليكن هذا النموذج في ميدان الغزل والنسيب ذلك الميدان « الطبيعي » للانسان ، والذي يصدر فيه كل شاعر على حسب سجيته ووفق هواه . ولاقتطع شيئا من قصيدة الوزير محمد ابن ادريس المتوفى سنة ١٢٦٤ التي تذكرك بموسيقى عبد الوهاب وغنائه وتنسيك نفسك التي قد تكون مثقلة بهموم الحياة :

سحرتك بالطرف الكحيل الساحر ومحسن قد كالقضيب الزاهر
وبغرة كالفجر تحت ذوائب كدجنة فأعجب لحسن باهر
وبنقطة مسكية في وجنة وردية ذات الأريج العاطر

وبريقها المعسول الا أنه يشفى الحشا من كل داء ضائر
ريق أعز على من نيل المنى وألذ من رشف الرحيق الخاطرى الخ

وهذه قطعة خالدة للأديب أبى عبد الله الشرق صاحب العلمى مؤلف «الانيس المطرب» :

من لى بها تختال فى حليها كروضة تختال فى زهرها
فبشرها أرحب من بشرها ونشرها أطيب من نشرها
وخدها أبهج من وردها ونورها ألطف من نورها
وقدها أرفع من غصنها ووجهها أبيض من فجرها
العيش والجنة فى وصلها والموت والنيران فى هجرها
عاطيتها راحا مشعشعة كمثل ياقوت على نحرها
راح أراح الانس فكرى بها من شارة الدنيا ومن شرها
وهى فى مجلس أفراحها كأنها الزباء فى قصرها
لو تسعد الدنيا بزورتها لاصطلح الناس على شكرها

وهى لرقتها تستحق الخلود أيضا تلحينا وغناء.

ومما يتفرع من هذا الموطن «شعر الاشارة» الذى يمت بصلة قربى الى باب الغزل والنسيب. ان التصوف لمن الادب الصميم، فكيف لايكون المتصوفة من أرباب الادب أيضا وهل هناك فرق بين الادباء والمتصوفة الا أن ليلى الاديب مريضة وليلى المتصوف ممرضة! على أنه قد لا يجدى تمريضها مع صبابته شيئا فيفنى فى هواها وتبقى ليلى وحيدة فى هذا الوجود استمع الى قول السيد الحراق

أنت الدجى كى لا يراها رقيبها ويخلص من شر الوشاة حبيبها
فتم بها اشراق نور جمالها وأخبر عنها اذ تضوع طيبها
فوالله لايخلو بها غير عاشق رقيق المعانى فى الامور لبيبها
فنى فبدت فى موضع الوصل وحدها ولما يكن شىء هناك يريبها

ولا أريد الاستشهاد كثيرا فان هذا مما يطول بهذا البحث القصير وأرجو الله أن أكون قد أعطيت صورة مصغرة لحياة الادب فى هذا العصر خاصة وفى العصور السابقة له عامة ، كما أرجو أن أكون قد وفقت فى اعطاء هذه الصورة ولو بعض التوفيق ؟

عبد الله محمد العمرانى

فهرس العدد الثانى من السنة الثالثة عشرة من صحيفة دار العلوم

صفحة

٣ فى رسالة الغفران لابى العلاء .
للاستاذ السباعى بيومى الاستاذ بدار العلوم

١٠ أثر الحضارة الغربية فى التربية
للاستاذ عبد الحميد حسن

٢٩ شوقى والعلم
للاستاذ محمد احمد الحوفى
المدرس بالمدرسة السعيدية الثانوية

٤٣ اسماء بنت ابى بكر
للاستاذ محمد يلى الفار
الفقيه بالمعارف

٤٧ فى الادب المغربى
للاستاذ عبد الله محمد العمرانى
خريج دار العلوم